يوم الدينونـــة

يونجهيل كانج

ولد يونج هيل كانج في قرية كورية في مطلع القرن العشرين وتثقف في ساؤول العاصمة الثقافية لكوريا، وفي طوكيو. وعندما بلغ الثامنة عشرة ذهب الى كندا، حيث استمر في دراسته، ثم انتقل الى بوسطن ونيويورك. وأخيرا أصبح مدرّسا في جامعة نيويورك ثم أرسل في بعثة ثقافية على نفقة حكومة الولايات المتحدة . ألّف كتابي "سقف الحشيش" و "الشرق يسير نحو الغرب" [وهذه القصة من كتاب سقف الحشيش]

* * *

في أواخرالربيع، إذ كنت في العاشرة من عمري عـدت ذات يـوم مـن مدرسة القرية متمارضا ورفضت مطلقا العودة اليها. وأزعج جدتي وجع معـدتي فاستدعت ساحرة.

كانت جدتي تؤمن بتعاليم كونفشيوس فأنشأت أبناءها على المثل الأخلاقية لهذا الحكيم. ولكنها كانت بحكم مزاجها بوذية تحب التأمل بنفسها في الكون وتقص الحكايات والأساطير عن بوذا. والى هذا كانت تؤمن باله هو حاكم الكون الأعلى، فكانت موحّدة كأكثر الكوريين. ولكنها، عندما يصاب أحد بمرض أو تجري الرياح بما لاتشتهي السفن، مما يحتاج الى حلّ عملي، كانت تستدعي عرّافة..

وكانت هذه الساحرة، أو العرّافة، امرأة عجوزا من الطبقة الدنيا، منحنيـة من وطأة السنين، ترتدي ثيابا بلون الطين، وتسير على عصا متغضنة.

كان من رأيي أن المرأة إذ تتقدم بها السن تغدو أكثر جمـالا، إذ يـسجّل وجهها ذكرى كثير من اللحظات الصادقة المخلصة. وأما اذا كانت قـد بعثـرت حياتها في الإثم والشعوذة فما أقل ما يضاهي في الدناءة تلك الأخاديد التـي تنبـي عن ماضيها.

خيل الي أن النساء اللواتي أرى "سونج- دون- شي" يتمتعن بوجوه جميلة، حتى عمتي البدينة، الى أن رأيت هذه المرأة، التـي تتظـاهر بـصداقتها لأرواح المرض وإرادة السوءوالتخريب. وتساوم علـى كـف أذى الأرواح الـشريرة اذا نفحتها شيئا مقابل خدمتها.

وكثيرا ما كانت تلج منزلنا لسببين. فاذا قبلت جـدتي مـشورتها، وهـي الأصيلة الرأي، فستحتذيها النساء الأخريات . والسبب الآخـر أن جـدتي كانـت متحفزة العاطفة تفقد صوابها حين تجد شخصا تحب في خطر ما. وفي هذه المرة اقترحت العرّافة أن توزّع أحذيتي وجواربي ومعاطفي وسراويلي التي أرتديها، ثم أخذتها معها الى البيت لينتفع بها ابنها.

نعم، كانت العرّافة دائما فطنة، تحرص على أن تتحدث مع جـدتي حـين تكون منفردة، فجدتي هي الوحيدة التي تستطيع خداعها إذ أن أحدا من الرجال في منزلنا لم يكن يؤمن بهذه الأرواح ، ولكنهم لم يكونوا ليعارضون جدتهم كمـا أن الرجل المهذب في الغرب لايعارض والدته حين تريد أن تعتنق مذهبها الرئيـسي. فاذا انتوت أن ترسل برغبة لها تبغي تحقيقها لأرواح القرية، يكتبهـا لهـا عمـي الشاعر الأحمق بأبيات أنيقة، ولكنها خالية من الحماس.

لم تكن جدتي عميقة الإيمان بالخرافات، بل تبدو رجيحـة العقـل عنـدما لايكون أحد مريضا، أو بحاجة ماسة الى شيء ما. ومع ذلك فإنها كانت في الواقع تصغي دائما الى الى مشورة العرّافة. وعندما سئلت أن تتلف ثيابي ، راحت تجادل في الأمر على هذا المنوال.

لن تصاب معدة تشانج با بأذى لو أتلفتها. وليس من المحتمـل أن تزيـد سقما. فلم إذن لاأفعل وأشعر بمزيد من الإرتياح؟ فلو ساءت صحته ولـم أفعـل جهدي، فكم سيخزني الألم الوجيع!"

ولكن وجع معدتي لم يتلاش، لأنني لم أرغب بالعودة الى مدرسو كومول. وهكذا عادت الساحرة.. وحين رأيتها تعبرباب الخيزران وتدخل المطبخ، تملكني الغضب لأنها أخذت ثيابي، وركضت الى المطبخ لأبرهن لها أنني لست مريضا،

في الوقت الذي كانت تحاول أن تقنع جدتي أن تعطيها أفضل شرائطي الطويلة، قائلة أن الأرواح الشريرة تريدها بالإضافة الى الباقي.

فصحت: "أخرجي! أخرجي ايتها المرأة الشيطانة القذرة! انني لست مريضا. فمن أين أتيت بهذا الهذر؟ اذهبي الى الجحيم أيتها النصابة المخادعة!"

وعساها جزعت حقيقة، إذ انسلّت بغير أن تفوه بكلمة . ولكنها عادت ذات يوم بينما كنت غائبا أصطاد، وأخبرت جدتي أنني سأجلب الدمار على عائلتي حتما اذا لم أرسل لأدرس تعاليم بوذا في الحال.

وبدت الفكرة لجدتي حسنة، ولم يعارض والدي بالرغم من أنه لم يكن معتنقا عقيدة بوذا. فالبوذية إذ تقارن بالحضارة الغربية تعتبر على أقل تقدير عريقة ومشرّفة. وفضلا عن هذا فإن لجدتي في مثل هذه الأمور الكلمة العليا. فهي السيد العملي وان كان والدي هو السيد النظري.

كان الأسبوع الذي ابتدأنا فيه رحلتنا وهجا ساكن الريح في قريتنـا كأنمـا نحن في وقدة الصيف.فلم يشعر أحد من أهل القرية برغبة في العمل، واعتـصبوا في حلقات يتباحثون الحالى السياسية فأغضبت هذه الأبحاث والدي، واستمرّ وحده في العمل . وجلس عمي الشاعر الأحمق تحت شجرة "أودونج" العريضة الأوراق، وراح يحتسي الخمرة ، ويبدو قلقا، ولكنه قال:

- "كلا- كلا! ان اليابان لن تأخذ كوريا. فبالرغم من أساليبها المـستحدثة فهي تحترم الثقافة القديمة كثيرا، وفضلا عن هذا فلقد وعدت أن لاتفعل."

وقبل أن نبدأ بالرحيل ، قمت وجدتي بعماد كلمل في حوض الإسـتحمام. وهو حوض مستدير خشبي مدهون باللون الأحمر اللامع. وهو موضـع جميـل للجلوس، ولكنه يكون بعض الأحيان مرمضا في الأيام الوهجة. وكـان التنظيـف التام لكل شعرة فرضا رمزيا، فيغلى الماء أولا ليغدو نقيا طاهرا.

وبدأنا سيرنا قبل البزوغ، فالرحلة تبلغ الثلاثين ميلا، وعلينا أن نسير بغير هوادة طوال النهارحتى نطوي المسافة على أقدامنا. وكان الهـواء علـيلا سـاكنا شاحب اللون كأنما اغتسل هو الآخر متطهـرا لأجـل الـسفر. وابرقـت عينـا

جدتي؛كانت سعيدة أنها ترحل تاركة وراءها أفراد العائلة ومشاكل الوطن لفترة من الزمن، وكان مزاجها يماثل ما وصف في ذلك الشعر الكوري القديم.

آخذ عصاي الخضراء ذات البراعم
واسير على في الممر الصخري
الى ثلاثة أو أربعة وديان سماوية
كللتها السحب بهالات
وأنفض عني اليوم غبار العالم
لأجمع أكواز الصنوبر الارجوانية
[الصنوبر عند الشرقيين هو رمز الخلود]

كانت جدتي تتوكأ عصاها، وأنا أحمل لفافة الثياب وورقا وأقلاما، وخادمة جدتي تتبعنا بالطعام. وكانت فتاة صغيرة في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة تدعى "كومسون"، أو طفلة من ذهب، وهي ابنة أرملة فقيرة. ولم يكن هناك مكثيرة تقوم بها في البيت فجاءت الينا لتساعد جدتي وبناتها في أعمال الغسيل والكنس وكي الملابس بعصاة المغسل مقابل طعامها وكسائها. أما المرأة العجوز التي تملك شجرة المشمش وتعتقد أن أفضل ما في الحياة دجاجة محمرة، فقد كانت مساعدة ممتازة في أعياد الأجداد، أو في أية وليمة، ولكنها لم تكن ذات نفع كبير في الأعمال اليومية في المنزل.

وازداد الصباح هدأة. فبعد أن قطعنا عشرة أميال منحدرين من الدير عبرنا أرضا نجدة خالية لابيت فيها ولا بشر. ولا يقوى حصان على ولوجها. وواصلنا سفرنا في ممرات ضيقة تمتد أميالا الى أعلى، حيث ينمو نبات أخضر بصمت على جانبيها. وكانت بعض اللوحات الصخرية قد نقش عليها بأحرف صينية فرحت وجدتي نقرأها بصت عال. ومرة رأينا سنجابا أمسك به نسر، وطائرا كبيرا يستحم في النهر. وعند العصر شاهدنا ناسكا يخترق خمرا من شجر ويمر بنا في طريقه الى المرتفعات، ولم يبال بنا، بل سار في صمت كذلك الناسك الذي صوّره الشعر:

على المياه ارتسم ظلّ

وعلى الجسر مرّ ناسك

قف أيها الناسك، وتحدّث معي..

اين طريقك؟

ولكنّ يده أشارت الى الغيوم البيضاء..

ومرّ بسكون..

وعلى طول الطريق، راحت جدتي تتحدث عن بوذا. قالت لي: "أنت تعلـم أن بوذا كان رجلا عظيما، عظيما جدا، وعليك أن تفعـل مـا يقولـه، وتقتفـي خطواته."

- "لم يا جدّتي؟"

- "ان الرجل العظيم يفعل دائما ما عاهد نفسه على فعله، وعندما ينتهـي الى قرار، يتأثر خطاه رأسا، في سبيله السيول، والنار، والجبـال وكـل خطـر يعترضه."

وحدثتني بحكاية عن بوذا. وكانت تعتقد بأنها لايعتريها الشك.

- "لقد ولد بوذا أميرا عظيما، في عالة أرستوقراطية، وكـان لـه الجـاه والأتباع والثروة. ولكنه لم يكن راضيا، لأنه أراد أن يدرك كنه الحياة. وفـي ذات يوم سمع طفلا يبكي فسأل وصيه:

- "يا وصيي، لم يبك هذا الطفل؟"

- "لقد ولد ياسيدي، وهذه بداية الأحزان!"

وفكر بوذا: "ان هذا لغريب. لم يبك الطفل؟ من أين أتى؟"

وذهب تحت شجرة صفصاف ورأى رجلا شيخا أصهب الـشعر مخـدّد الوجه نحيلا كالشبح. فسأل وصيه:

- "يا وصيي، لم يبدو الشيخ قبيحاعلى هذه الصورة؟"

- "كل الرجال، ياسيدي، يتقدمون في السن، في هذه الحياة. انـه طريـق الأحزان."

وفكر بوذا: "لاأرغب أن أصبح شيخا مثله. ان هذا جحيم."

ثم مر بوذا برجل يئن من الألم فسأل وصيه:

- "يا وصيي، ما بال هذا الرجل؟"

- "ياسيدي، انه في ألم. كل إنسان سيعرف الألم في فترة ما في حياته. ان في الحياة أحزانا كثيرة، كثيرة جدا."

وفكر بوذا: "أريد أن أتجنب هذا!"

ولم يلبث أن وجد أناس يعولون أمام بيت.

- "ياوصيي، لم يعول الناس؟"

- "ياسيدي، هنا رجل قد مات. رحل رجل عن هذه الأرض. هـذه هـي النهاية."

وفكّر بوذا: "الى أين ذهب؟ لم مات الرجل؟"

وغرق بوذا في التفكير: "ما معنى كل هذا؟" وغدا همه الأكبـر أن يحـل رموز هذه المعضلة. وأخيرا هجر زوجته الجميلة، وطفله الوسيم وبيتـه الفخـم، وترتقى جبل الثلوج، وهو يحاول أن يجد الحل. وبعد مرور سنوات طويلة استنار فكره. أدرك أن كل مخلوق حي يقوم برحلة ليصل الى الأبديـة. وأن كـل روح تقترف ذنبا تعيد الكرّة وتبدأ من جديد. وبعد أن وصل بوذا الى هذا الحل قـرّر أن يتجنب اثنين: أن لايكذب، ولا يقتل مخلوقا حيا. فكل ما شاهده كان يعتبره أخاه."

وأردفت جدتي: "ولهذا يأبى الناسك الطيب، كيم، أن يذوق لحم الـدجاج إذ يأتي الى منزلنا، كما تعلم."

- "ولكن الناسك، باك، يفعل ياجدتي."

وفسّرت جدتي الأمر بقولها: "هناك نسّاك صادقون وآخرون مزيّفون، ككل شيء آخر في هذه الحياة."

واستمرت في قصتها: "وأنت تعلم أنك عندما تعزم على أن تكـون رجـلا عظيما، يرسل اليك الله دائما رسولا ليمتحنك. وهكذا عندما نزل بوذا من الجبـل ونذر ليقيمن عهده، أرسل الله اليه رسولا ليمتحنه، وكان هذا الرسول غزالا.

فبينما كان بوذا في طريقه، إذ اندفع غزال من الغابة وهتف ببوذا:

- "أواه أنقذني، أنقذني، يابوذا! ان صيادا يبغي قتلي!"

ففكر بوذا: "اذا أردت أن أفي بعهدي، فعلي أن أنقذ هذا الغـزال." ونثـل حفرة في الأرض وأخفى الغزال ثم غطاه بأوراق البلوط وأمره أن يبقى سـاكنا. ولم يمض وقت طويل حتى برز الصياد.

- "أخبرني هل رأيت غزالا؟ أين ذهب؟ انني سأقتنص هذا الغزال."

فماذا يفعل بوذا؟ فلو أنه أجاب بالنفي لجنح الى الكذب، ولو أنـه أجـاب بالإيجاب، لخان الغزال، فتقع الجريمة على عنقه. وهكذا لم يقـل شـيئا. فركلـه الصياد في جنبه، ثم دفعه في الجنب الآخر، ولكن بوذا وقف صامتا. وعندها وقع الصياد على ركبتيه وعبد بوذا. وأخذ يهتف:

- "أوه! هنا إنسان عظيم!"

واهتدى الى الإيمان بفضل بوذا، الذي احتمل البلاء وثبت على العهد."

وهكذا مرّالوقت بسرور مع جدتي حتى غابت الـشمس وتنقبـت الجبـال بظلال ناعمة باهتة وتفرّعت سحب هنا وهناك. ولم نبلغ الـدير الاّ وقـد أسـدف الليل؛ وهكذا كان حال المسافرين عامة، فالهياكل كانت قصية عن القرى ولا ترتاد الاّ قليلا.

انها تجربة جميلة أن نبلغ هيكلا بوذيا عند الغسق. وهناك أشعار كثيرة في أدب قومي تصف هذا المشهد.

بهدير الطبول، يبدو الهيكل
قريبا بالرغم أنهم يقولون أنه بعيد
بعيد فوق الجبال الخضراء
بعيد على أقدام السحاب
ولكنني لاأستطيع أن أرى..
الضباب المكفهر يبهم لي الطريق.

منذ قرون، كان الكهنوت عاملا قويا في البلاد، فحتى الملك كان مرغمـا على ارتداء ثوب ناسك إشارة الى أنه موظف كهنوتي. ولكن مع الـزمن فـسدت البلاد تحت حكم الكهان. إذ حدث أن منصة معينة حيث كانت تتعبد نسوة مليحات هبطتبمعجزة مخترقة الأرض. وهناك في مكان سحيق تحت الأرض غدر الكهان

بالنسوة. ونتيجة لذلك طردت الهياكل الى مواضع قصية في الجبال حيث لا يقوى الكهان على إحداث مزيد من المعجزات. ولكن ذوي الطبائع الغيبية الذين لم يكتفوا بتعاليم كونفشيوس العملية، كجدتي، استمروا في حجهم اليها مرة أو مـرتين فـي العام ليستودعواالنساك صلواتهم.

وكان الهيكل القديم العهد يبدو في الغسق الأصفر وكأنه يذوب فـي قمـة الجبل الزمردي، تحفه النمورالحجرية والأسود المرمريـة، والجـداول المفـردة والأحراش المقدسة. وكانت هذه التماثيل ذات الأشكال الخيالية قد نحتتهـا، كمـا أعلم، يد الإنسان. ولكن لم يكن من شيء هناك يبدو اصطناعيا، بل كأنها جميعهـا نبتت من الأرض وجرت مجرى الطبيعة بهاتيك الألوان القاتمة الغنية للمـزارات التي تستحم بالشمس والمطر، والريح وعواصف الجبل لقرون لاعدّ لهـا، ولـون الدرجات الرمادي والأعمدة القاتمة الإحمرار. انها تبدووكأنها لحن منـسجم مـع الصخور والأشجار الطبيعية ضمتها جميعها وحدة لاتتجزأ غير منظورة. وغـرد طائر المساء ينمو مع خرير الجدول الجاري ويتلاشى مـع شـهقات الـصنوبر الطويلة . غير أن كل شيء كان يبدو أثيريا غير حقيقي وكأنه حلم غامض.

وفي مجموعة من لوحات الضباب، أستعيدذكريات إقامتي لثلاثة أشهر في ذلك الهيكل الذي ينتمي الى مدرسة التأمل لبوذا- ظلام فجوات الجبل عند الفجر والشفق، والسكون، الهدأة الدفينة لكل شيء في النهار، والتحيات الغامـضة التـي يتبادلها النساك والتي ما لبثت أن تعلمتها- "نام مو آه مي تو بول" (اننـي أقدسـك وألتجئ اليك، يا أميتابا)، أو صلاة "بوتشي تـشونج سـينج" (لخـلاص الأحيـاء جميعها)، والغرفة الباردة الصامتة الشاحبة حيث كنت أدرس، بجدرانها العظيمـة المرسوم عليها صور الأبطال والحكماء الذين عاشوافي الماضي، والمخطوطـات البوذية في المكتبة التي أطالع بها طويلا، والكـاهن الأشـيب، أسـتاذي، بثيـاب الحدادذات اللون الطيني ووجهه الشفاف المنطلق من أسار الرغبـات والحـرص الدنيوي.

حاول أن يعلمني أساليب "النرفانا" التي تعني التفاني كشمعة تنطفئ رويـدا رويدا. وكنا نجلس في غرفته الكبيرة الخالية بأعمدتها التي تحمل هذه النقوش.

لاتقترف منكرا
بل افعل كل ما هو خير بإذعان
طهّر فكرك من الأنانية
هذه كل تعاليم بوذا.

وعندما خرجت الى الحدائق المونقة انتهرت لأنني لطمت برثوثا هدّ على أذني أو أنفي فسحقته. وقال الناسك كيم:

- "حتى البراغيث ربما كانت تحمل في كنهها بوذا. ربما كانت هي تحاول بلوغ النرفانا والمرحلة التي لاتولد فيها كّة أخرى. حاول أن تكون حليما. وإياك أن تغدو المصير التعس لأي من الأحياء."

وهكذا تعلمت كيف أن البوذيين لا يقتلون فأرا، أو نملة أو أبقارا.

وعندما عدت الى منزلي في الأسبوع الأخير من شهر أغسطس وجدت تناقضا مذهلا لعالم الأسرار الذي هجرته من عهد قريب. ومن المحتمل أن يبدو الأمر غريبا للقارئ الذي لم يألف سياسة الشرق الأقصى، فكوريا كانت أمة مستقلة لمدة اثنين وأربعين قرنا قبل تعدّي اليابان الجديدة عليهابصورة تدريجية مثابرة. ولكن قوة اليابان في الشرق نيلت من تبنيها الحضارة الغربية بسرعة وخصوصا فيما يتعلق بالمعدّات الحربية. ولعلها لم تتقن غيرها، منذ دخول "بري" حتى غدت فيها ندا للأمم المهتدية. وبالقوة التي تمتاز بها الأمة الفتية ، التي عملت على إدخال تغييرات هائلة في نظمها، والتي هي ميالة للتقليد بفطرتها، كان من السهل عليها أن ترمي بثقافة مستعارة لتبدلها بغيرها. نعم كان هذا أسهل بالمقارنة مع الأمتين العريقتين، الصين وكوريا اللتان تمسكتا بالثقافة الكونفشيوسية القديمة بشدة؛ وفي عصور التقهقر صعقت كل منهما لفكرة تبادل الفكر والشعور مع العالم الواسع خلال الأزمنة الأخيرة.

اليابان الصغيرة تنتصر على ملايين الملايين من الصين العميقة الحكيمة. وبعد انتصارها، راحت تفرض شروطها على كوريا، في الحرب الروسية اليابانية. إذ كان عليها أن تسمح لكتائبها بالمرور في كوريا، ووقعت معاهدة تعلن

أن ليس لها من مطمع فيها. ولكن كتائبها لم تنسحب. بقيت تحمي أسراب المغامرين اليابانيين من الطبقة الدنيا الذين تبعوها، وتساند كلّ أفعالهم الخاطئة.

وتحركت اليابان متأنية. وكان أول فعلت أن قبضت على الزمام الصامت لحكومة "سيؤول" المضطربة العاجزة في 1907 وأحاطت الإمبراطور بالجواسيس والقواد اليابانيين حتى اضطرته أن يتنحى عن السيادة الى إبنه الأصغر؛ وأخيرا تكلمت اليابان بصراحة في التاسع والعشرين من أغسطس 1910 عندماألغت جميع المعاهدات وأعلنت جهارا انضمام كوريا اليها.

وحين بلغت الأنباء سقف الحشيش في سونج- دون- شي احتقن وجه والدي ، ولم يقو على أن ينبس ببنت شفة . وبدا عمي "باك- سا" فجأة كأنه تقدم في السن، وراح يرتجف ثم فقد صوابه في غرفته. وجلس عمي الشاعر الأحمق يحملق الى مدى بصره في الظلام. وأول ما جال في ذهني خاطر أنني غير ناضج: "والآن لن أستطيع أن أكون باك- سا أو رئيس الوزراء في كوريا."

وانفجرت دموعي. ولكن إخوتي الأكبر سنا مني لم ينتحبوا. فركضت خارج البيت أعول. ونظرت الى السماء لأرى اذا كان هناك حقيقة مصير أسوأ ينتظرنا. أين الصاعقة الأخيرة والسيل الذي يتقدم ويجتاحنا؟ ولكن السماء كانت زرقاء صافية، وزبد النهر البلوري يلتمع ونو يور في جريانه.وكان الأطفال واقفين هناك بوجوه شاحبة مذعورة. والقرية هادئة.. ولم ينبس أحد ببنت شفة. وأخيرا، وبعد الظهر، انفجر نحيب عام. في كل مكان كان يسمع نواح، كأنما في كل بيت في القرية مأتم. وابتدأ بعض الرجال يحتسون الخمر بإفراط ويهتفون:

- "جاء يوم الحشر! وسنذهب جميعنا الى الجحيم!"

وانزوى والدي خارج البيت، بالرغم من أنه لم يشرب ولم يذق طعاما منذ الصباح.

وصاح والدموع تجري من مقلتيه: "يا أبنائي المساكين المساكين!" ومد يده الينا، وكأننا جميعنا أبناؤه البكر.

- "والآن جميعنا سنموت من المجاعة المدمرة. ان زمن المحل الذي لا ينتهي قد حل بنا. فمن يدري متى سنغدو سعداء مرة أخرى!"

وبدموع تجري على وجهه، وتمتزج بلحيته، وضع العلم الكـوري فـوق الباب وانحنى له.

لم يكن من عشاء تلك الليلة. وجلست والدتي إزاء ضوء شمعة وهي فـي نفس الثول الذي كانت ترتديه في الصباح. وألحّت في تقـديم فنجـان مـن الأرز والشاي لوالدي وهو مستلق بكآبة على الحصير ، فلم يقبله.

وفي الصباح، وجد أن عددا من الشبان الذين ثملوا في الليلة الماضية قـد أقدموا على الإنتحار. واستلقت جثثهم على ضفاف النهر حيث اعتادت النـسوة أن تغسل الثياب في هذا النهار.

وجاء شرطي ياباني الى قريتنا، على رأس فرقـة مـن اليابـانيين ذوي المعاطف الزرقاء الباهتة، وكان كل فرد منهم قد تمنطق بـسيف طويـل. ومـن الطبيعي أنهم طرقوا بابنا وسألوا لم لا نرفع علم الشمس الياباني بدل علم كوريـا ذي اللونين الأحمر والأبيض وهو رمز لمجال العناصر المـذكرة والمؤنثـة بمـا يتلاءم والفلسفة الكنفوشيوسية في كتاب "التغيرات"، الشمس والقمـر والعناصـر الأخرى التي تستعمل في ضرب الرمل.

وهز والدي كتفيه وتظاهر بعدم الفهم. فهجم الشرطي الياباني القصير على والدي، يركله ويضربه مهددا بسيفه. ورأته جدتي من النافذة فاندفعت الى الخارج بدون أن تتوقف لتضع جلبابها على رأسها وتنقب وجهها من الأعين المتطفلة.

وصاحت وهي تحول بينهما: "إياك أن تمس ولدي! فهو لم يذق طعاما منذ يومين ولا يدري ما ذا يفعل."

وما كادت تفعل حتى صرعها الشرطي أرضا. وركلها بوحشية بجزمتـه الغربية. وما أن رآها أبناؤها حتى تسارعت أنفاسهم . فلمس امرأة عجوز، هي أم أبناء ، جريمة لايكفر عنها الاّ بالموت في أعين الكوريين. فحتى المجرمين يجدون الأمان وراء تخومها. كان والدي حريا أن يجندله، لولا أن رأى جدتي يغمى عليها من الألم. فما أسرع ما ألقاها على منكبه وسار بها نحو السوق الى عيادة طبيـب ماهر. ولكن مفصل قدمها كان قد هشّم وبقيت طريحة الفراش لأسابيع عديدة.

وفي تلك الليلة ذهبت الى استوديو عمي الشاعر الأحمق واستلقيت على الحصير، أبكي تعسي، ولم ألبث أن سمعت الشاعر يـذرع الأرض ويتمـتم فـي الغرفة المجاورة. فثقبت الباب الورق بإصبعي المبلل ونظرت الى الـداخل.كـان واقفا في الباب الخارجي يهز قبضته في وجه السماء:

- "ايه، أيتها النجوم وأيها القمر، كيف أمكنك أن تلتمعي؟ لم لا تنحـدرين بصاعقة وتنقضين على كل شيء؟ ويا أيتها الجبال، ان روحك لمشرقة زفزافة في الأوراق الخضراء والأشجار والحشيش، ألا تستطيعين أن تدركي أن كل شيء قد انقضى؟ انتهت الرسالة القومية لظلمة التي عاشت فيك أجيالا عديدة، والتي استلقت في أحضانك والتي شربت دماءها ، والتي كنت عروس الشعر في سنين لاعدّلـه. يا أرواح المياه، ويا أشباح الفجوات، ألا ترين كيف انقض الموت على هذا الشعب الذي استوطنك أربعة آلاف سنة منذ ظهر الملك الأول "تان- كون" على الجبل ذي الرأس الثلجي قرب الشجرة المقدسة؟ ألا تعلمين أن روح كوريا قد ذهبـت، إنهـا انسلت هذه الليلة، وتركتنا وراءها أثوابا بالية؟"

وعلمت أن عمي الشاعر الأحمق كان يخاطبها كأنما كان يودع طيفا، وكما ودّع الطبيب روح جدي على ظهر سقف الحشيش..

هل انتهت كوريا؟ البلاد الأزليـة التـي عاصـرت الأزمنـة الهوميريـة والعصور الذهبية، بعيدة في مفاهيمها عن روح الإمبراطريـة الرومانيـة وكـل الحضارات العصرية الى يومنا هذا.. انخرطت في البكاء حتى غلبنـي النعـاس. وفي الخارج كنت أسمع طوال الليل أصواتا غير طبيعية الاّ فـي النهـار- انهـا جلجلة الأبقار التي لم تزرب في الليل، وخوارها الذاهل.

* * *